من سلسلة من كلام العارفين

للحاج الحبيب بن حامد حفظه الله

المذاكرة عدد 2

التَّصْدِيقُ؟

الزاوية التجانية باب الخضراء تونس

تمهيد

بسم الله الحمد لله والصّلاة على رسول الله ﷺ

قال ﷺ: ((**لاَ بَأْسَ بِالحَدِيثِ قَدَّمْتَ فِيهِ أَوْ أَخَّرْتَ، إِذَا أَصَبْتَ مَعْنَاهُ**)) الجامع الصغير رقم 9706

وقال سيدي الحاج علي حرازم رضي الله عنه: "...وأرغب لمَن طالع مكتوبنا هذا أن يغضّ عنه عين الانتقاد ويسمح لنا ما يلقاه من التّصحيف والتّحريف والزّيادة والتّطفيف ويصلح ما وجد فيه من الخلل ويقابل جهلنا بالصّفح والإغضاء وحسن العمل فإنّا لسنا من أهل العلم ودرايته ولا من أهل النّحو وصناعته وإنّما حملنا على ذلك شدّة حبّنا في أهل هذا الجناب وتعلّقنا بهؤلاء الأحباب ومن أقام لنفسه عذرا سقط عنه اللّوم" ...

من مقدمة كتاب جواهر المعاني وبلوغ الأماني

مقدمة

على مدى سنوات، اجتهد ثلّة من الإخوان والأحباب المنتسبين للطريقة التجانية بزاوية باب الخضراء تونس، بكتابة هذا التأليف استنادا لما تمّ تسجيله وجَمْعه ونقلُه من العامية إلى الفصحى، مِن مجالس ودروس ومسائل عرفانية، للمقدم البركة سيدي الحاج الحبيب بن حامد حفظه الله تعالى ورعاه، فأقرّهم على هذا الأمر وأذن فيه واجتهد في إصلاحه ، والله من وراء القصد.

بسم الله الحمد لله والصلاة على رسول الله ﷺ

تونس العاصمة، الاثنين 11 رجب 1429 هـ

الموافق لِـ 14 جويلية 2008 م

التَّصْدِيقُ

البيان: يفعل المالك ﷻ في ملكه ما يشاء، فهذا هو التّصديق، والمعرفةُ بالله تعالى هي التّصديق، كما قلنا، لأنّ محلّها السّر، والسّر يُفتَح فيه للمعرفة، وليس محلّها العقل والتّدقيق وعلم الدّراية[1] وعلم الكسب فذاك يُدرَك بالعقل، أمّا المعرفة بالله تعالى والطّريق إلى الله تعالى فهو التّصديق، إذَا صدّقتَ وإذا

[1] علم دراية الحديث. هو مِن علم الحديث، وهو علم يعرف منه حقيقة الرواية وشروطها، وأنواعها، وأحكامها، وحال الرُّواة وشروطهم وأصناف المرويات وما يتعلق بها. والقسم الآخر من علم الحديث هو علم الحديث روايةً.

فَتَحتَ باب التّصديق بأن نويتَ نيّة صالحة في عالِم ربّانِي وليٍّ مِن أولياء الله تعالى فإنّك تَدخل وتَلِجُ معه تلك الحضرة، لأنّك عاهدته على ما عاهد هو عليه الله ﷻ، فأوّل عهد هو التّصديق، وبذلك تدخل معه، أي هو مَن يُدخِلك، وبركته هي الّتي تُدخِلك، ولا يُدخِلك علمك، فالطّريق مقصور على التّصديق وعلى الاتّباع، لا يدخل أحدٌ حضرة الله ﷻ؛ أي حضرة صفاته وأسمائه وحضرة "**كأنك تراه**"؛ إلاّ بالإذن، أي بقبولِ ورضَا مَن سيدخله، هكذا أراد الله، فقوله ﷻ ﴿**وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا**﴾[2]، يكون هنا أبلغَ منه في أي موضع آخر، فلا تدخلُ وحدك أبدا، هذا مستحيل، لأنّك ستعوّل على فكرك وستعوّل على فهمك وستعوّل على علومك الّتي علِمتها وكلّ هذا لا يوصلك إلى مخدع السّر، فإذا اتّبعت شيخا كامل الأوصاف ورِعًا صالحا، ومَن كانت هذه أوصافه وشُهد له بالعدالة ولو في الفقه فإنّه يُترك وما يفعل ولو خالف الجمهور في الفقه المشهور، ولا يُنكَر عليه، هذه قاعدة فقهيّة، ومثال ذلك ابن عرفة الورغمّي شدّد على وليّ

[2] البقرة: الآية 189.

الله أبي عبد الله الدكالي لأنّه ترك الجماعة في الجُمُعات مع النّاس وأصبح يصلّي وحده، وكان فيما قبلَ ذلك يصلّي مع النّاس، لكنّه لما دقّق في مسألة أخذ الإجارة على الصّلاة ترك الجُمُعات فأنكروا عليه، والإمام ابن عرفة وما أدراك مَن ابنُ عرفة فقيهٌ عظيم القدر والمقدار والشّأن في الفقه لكنّه شدّد على وليّ الله، وظلّ يبحث لماذا ترك الجمعة والجمعات حتّى اتّهمه بالفسق، فاجتمع فقهاء وعلماء مصر على ذلك فقلّبوا الأمر ومحّصوه وربّما تكلّموا مع هذا الوليّ سيدي أبو عبد الله الدّكالي، وأجابوا ابن عرفة، ردّا على كلّ فقيه لا يتورّع في ثلب النّاس والانتقاد عليهم، وكان جوابا حاسما تربيةً له ولغيره، وابتدؤوا بما معناه:

مَا كَانَ مِنْ شِيَمِ الأَبْرَارِ أنْ يَسِمُوا
بِالفِسْقِ شَيْخًا عَلَى الخَيْرَاتِ قَدْ جُبِلاَ

لاَ لاَ وَلِكِنْ إذَا مَا أبْصَرُوا خَلَلاَ
كَسَوْهُ مِنْ حُسْنِ تَأوِيلاَتِهِمْ حُلَلاَ

وقالوا أيضا:

وَقَالَ فِيهِ أبُو بَكْرٍ إذَا ثَبَتَتْ
عَدَالَةُ المَرْءِ فَلْيُتْرَكْ وَمَا عَمِلاَ

ثمّ قالوا له: لنفترض أنّك على حقّ فهُوَ أيضا على حقّ والفقه أقوال، إلى آخره، وكانت له بتلك الحادثة تربيةٌ عظيمة، له ولغيره من الفقهاء في مسألة أخذ الأجرة على الصّلاة، فمِن هنا نعلم أنّ الفقيه لا يستطيع أن يَلِج حضرة الله ﷻ أي الحضرة الإلهيّة إلاّ بصعوبة لأنّه يعوّل على علمه، وهذا العلم هو الحجاب الأعظم لديه، لأنّه سيظنّ أنّه تمكّن من أصل العلوم كلّها وأنّه جَمَعَهَا، وهو بالنّسبة إلى عارفٍ بالله تعالى كأنّهُ ليس له أيّ علمٍ، فلو كان أمام العارف فإنّه يستطيع أن يُظهِر له شركه بالله في عبادته، لولا أن سبق مِن الله ﷻ أنّه ((**مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**

وَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ))[3]، ولولا هذا لأظهر له أنّه في شرك صَراح مع ربّه ﷻ لكن الله لا يؤاخذه على ذلك لأنّه سبق في علم الله ﷻ أنّه ما دام يشهد أن "لا إله إلاّ الله وأنّ محمّدا رسول الله"، ﷺ، وأنّه مسلم فإنّ ذلك يصنّف في الشّرك الخفيّ، فقد قال ﷺ في الحديث الشريف: **((كما لا ينفَعُ معَ الشِّرْكِ شيءٌ كذلِكَ لا يضرُّ معَ الإيمانِ شيءٌ))**[4] **((احذَرُوا الشَّهْوَةَ الخَفِيَّةَ: العَالِمُ يُحِبُّ أَنْ يُجْلَسَ إِلَيْهِ))**[5].

---

[3] المستدرك على الصحيحين: كتاب التوبة والإنابة: مَن قال لا إله إلا الله دخل الجنة ووجبت له الجنة: عن إِسْحَاق بْن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **((مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةً كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ حَسَنَةٍ وَأَرْبَعًا وَعِشْرِينَ حَسَنَةً**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذًا لَا يَهْلِكُ مِنَّا أَحَدٌ . **قَالَ: بَلَى إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَجِيءُ بِالْحَسَنَاتِ لَوْ وُضِعَتْ عَلَى جَبَلٍ أَثْقَلَتْهُ ثُمَّ تَجِيءُ النِّعَمُ فَتَذْهَبُ بِتِلْكَ، ثُمَّ يَتَطَاوَلُ الرَّبُّ بَعْدَ ذَلِكَ بِرَحْمَتِهِ))**.

[4] ابن عدي والعقيلي عن عمر بن الخطاب ﷺ

[5] الديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة ﷺ

وأمّا عند العارفين أهل الحضرة القدسيّة المغترفين منها غداء وعشاء، فعندهم هذا هو الشّرك بالله ﷻ الواضح الجليّ، لأنّهم يرون كيف أنّ النّاس لا يعبدون الله وإنّما يعبدون غير الله، يعبدون أنفسهم ومالهم ويعبدون أغنياء الناس ووجهاء الناس

((الشرك الخفي أن يعمل الرجل لمكان الرجل)) (الحاكم في المستدرك) عن أبي سعيد ﷺ

((الشِّرْكُ فِي أُمَّتِي أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ على الصفا)) (الحكيم) عن ابن عباس ﷺ

((الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل، وسأدلك على شيء إذا فعلتَه أذهب عنك صغار الشرك وكباره، تقول: "اللهم إني أعوذ بك أن أُشرِك بِكَ و أنا أعلَمُ، وأستغفرك لما لا أعلَمُ". تقولها ثلاث مرات)). الحكيم الترمذي عن أبي بكر ﷺ

((الشِّرْكُ أَخْفَى فِي أُمَّتِي مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ وَأَدْنَاهُ أَنْ تُحِبَّ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الجَوْرِ أَوْ تُبْغِضَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ العَدْلِ وَهَلِ الدِّينُ إِلاّ الحُبُّ فِي الله وَالْبُغْضُ فِي الله؟ قَالَ الله تَعَالَى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله)). الْحَكِيم الترمذي والحاكم في المستدرك وأبو نعيم في الحلية عَن عائشة رضي الله عنها.

((قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أَشْرَكَ فيه معي غيري تركتُه وشركه)) (مسلم) عن أبي هريرة ﷺ

وحب الشهرة وحب المحمَدة وحُبَّ الفتح والتصريف إلخ... وجُلّ النّاس يزعمُ أنّه يعبد الله وهم لا يعبدونه على الحقيقة، وقليلٌ مَن يعبد الله على الحقيقة وبحقيقة الإخلاص، وهؤلاء هُم محلّ نظر الله في الخَلق، وهم أولياء الله، مع الله بقلوبهم وأسرارهم وأرواحهم هائمون في حبّ الله ﷻ، وفي حبّ نبيّه ﷺ وفي المحافظة على النّصوص الشّرعيّة وعلى الصّلوات في أوقاتها، هؤلاء هم أهلُ الله، وقليلٌ مّا هم، قلائل هُم النّاس الّذين يعبدون الله حقيقة، وأمّا غيرهم فيعبدون الله فقط، وهُم لا يعلمون بالشرك الخفيّ، ومن هنا فالطّريقة التّجانية ليست طريقة تصوّفٍ بمفهوم الرياضة وطلب الفتح بل الطّريقة التّجانيّة هي مدرسةُ تعليمِ علمِ الإسلام بكلّ وضوح، وتعليم وتحقيق الإخلاص في الإسلام تعلُّقا وتخلُّقا، وليس فيها إلا سؤال واحد: كيف نعبد الله؟، فسيّدي ومولاي أحمد التّجاني ﷺ هو صاحب "كيف نعبد الله؟"، فقد استخرج لنا من النّصوص الشّرعيّة ومن السُنّة النبويّة ومن الشمائل والأخلاق المحمّديّة ﷺ ومن اجتهادات العلماء ﷺ، سواء طريقةً أو فقهًا أو سلوكًا إلى حضرة الله، وجمع

كلّ هذا ونقّحه وصفّاه ووجّه كلّ الكلّ إلى حضرة الكلّ: حضرة الله من غير تجزّء، فسُمِّيَت طريقة تجانيّة باسمه ﷺ وأرضاه، لأنّه وليّها ورئيسها، وأمّا هو فإنّما أحيا الدّين فقط بها، فقد أحيا وجدّد دين الإسلام، فأعطاه رسول الله ﷺ وِردا يعطيه لكلّ من أراد إصلاح نفسه على دين الإسلام، على المنهج الصّحيح، وهي "كيف نعبد الله؟"، **فكانت عامّةً في عمومها خاصّةً في خصوصها**، ليس فيها إلاّ "كيف نعبد الله؟" وليس فيها إلاّ علم دين الإسلام، فهذه هي الطّريقة التّجانيّة، وهذا الكلام في ذاته هو عظيم حتى في الطّريقة نفسها لمن فهمه وتذوّقه وكان عالِما بمسؤوليّته وعالِما بما يُراد به وعالِما بما يجب أن يكون عليه عملُه في الطّريقة، ولذا كان أوّل شيء فيها هو التّصديق، **وأوّل قدم يضعها المريد في الطّريق هو الصّدق والتّصديق**، فيكون متّبِعا، فلمّا اتّبع ظهرت له محاسن وأسرار ذلك الاتّباع، وظهر له ما أشار إليه ذلك العارف وما أراد أن يقوله في السنّة النبويّة وفي فهمه لكتاب الله ﷻ، هذا ما يظهر له إذا صدق معه، فإذا لم يصدُق معه ولم يصدّقه فإنّه يحجب عنه، بماذا؟، بفهم المريد،

إذ لا تستطيع أن تفهم عارفا بالله، لأنّ العارف بالله أحوالُهُ كلُّها بالله ﷻ، فمن أين لك أن تفهمها؟، باطنه يقدح ويغلي بالحديث والقرآن، وكلُّه حديث وقرآن من جميع جوانبه، وظاهره لا يظهر عليه إلاّ بعض الأفعال، وهو قليل الكلام، إلاّ إذا وجب عليه ذلك، ولا يَظهَر بمظهر معيّنٍ مميّزٍ ولا يُظهِر للنّاس كراماته، ويُخفي نفسه ويخاف ربّه ويخشع وإن بكى فيبكي وحده، وهذا كلّه ممّا يجعله مخفيّا عن النّاس، وهو رجل في حضرة ربّه حقيقةً وعاميٌّ عند الناس لا يظهر بمظهر الوليّ، يعبد الله متحقّقا أنّه في حضرة الله في كلّ نَفَس، فكيف يصلُ إليه الإنسان وكيف يَعرِفُه؟، إلاّ إذا صدّقه، فإذا صدّقه برزت له أسرار اعتقاداته، وأسرار نيّاته: كيف ينوي؟، لماذا نام هكذا ولم ينم هكذا؟، لأنّ في نيّته استنادٌ إلى حديث أو إلى آية قرآنيّة، فكيف تفهمها أنت إذا لم تصدّقه؟، وكيف تصل إلى أن تفهم نيّته؟، وإذا لم تفهم نيّته فكيف تفهم ما استند إليه هُو في نيّاته الصّالحة؟، إذًا لا تفهم منه شيئا، ولا تفهم إلاّ ظاهر الشّريعة، ولذا كان التّصديق هو

أوّل قدم[6] يضعه المريد في الطريقة، والدّخول في الطّريقة التّجانيّة إنّما يكون بالصّدق والتّصديق، وفي العلم يكون بالتّدقيق والتّحقيق وعلم الدّراية وعلم الرّواية، وأمّا المعرفة بالله تعالى فهي تصديق **ورعاية** وعهدٌ بين آخذٍ ومُعطٍ، والمعطي هو سببٌ فقط، لكنّه سبب عظيم عند الله تعالى وعند أشياخه، والآخذ هو آخذٌ مِن الله فقط، لكنّه أيضا لا يأخُذُ إلاّ بالوسائط، فمِن هُنا كانت عينٌ لله وعينٌ للوسائط، والمعطي كذلك يعطي بالله ويعطي بذاته، فهُوَ بذاته اسمٌ من أسماء الله تعالى، كما قال سيدي الحاج الأحسن البعقيلي ﷺ مما هو معناه: شيء خاص في ذات المربّي هو الّذي يُبرز لك تلك الخّاصيّة، فالطّريقة هي طريقة تصديق ولا ينفتح بابها إلاّ بالتّصديق لأنّ أصل بابها إنّما هو في السّر، وأصل العلم هُوَ في إعمال العقل وإعمال الفكر، فيُفتح له فيه بالفكر والمقدّمات والاستنباط، وهو عِلمٌ ﴿**لَعَلِمَهُ الَّذِينَ**

[6]الفوتي (عمر) رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم (الفصل السادس عشر): في إعلامهم أن أول قدم يضعه المريد على هذا الطريقِ الصدقُ.

يَسْتَنبِطُونَهُ﴾ النساء83 وأمّا الطّريقة فيُفتح لها في السّر، والسّر يكون بالتّصديق، وبالتّصديق تُفهم أذواق العارفين، وإذا بدأتَ في فهم أذواقهم فإنّك بدأتَ كتابا جديدا في حياتك، فتستطيع أن تتبحّر فيه إذ ليس له نهاية، وإن لم تدخل فإنّك لن تدخل إلاّ على أيدي واحد من أصحابه ولا تدخل بنفسك، إذ يستحيل أن يدخل الإنسان بنفسه، أبدا، مهما كان عِلمه، ولو كان علمه كالحسن البصري، فإنّ العلوم الأخرى كلّها أمام علم المعرفة كنور مصباح في قوة ضوء الشّمس وأكثر من ذلك، فهذا يوحّد توحيدا بالقلم وباللّسان والفكر، ويوجد علامات وبراهين يستشهد بها على وجود الله وعلى وحدانيته، والآخر في التّوحيد صدّق وآمن فرأى وتحقق وقرب وهنأ له المقام، ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾** ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾** ﴿**الرَّحْمَٰنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2)﴾** أي أنه هو بنفسه في التّوحيد، فلا يوحّد بالعقل وإنما بالتصديق، فهذا هُوَ في حضرة الإله ﷻ، فشتّان ما بين هذا وذاك، ولذا كان مقام العارف الوليّ مقاما عظيما عند الله ﷻ ...

قال في جواهر المعاني: وسألته رضي الله عنه عن معنى قول الشيخ الأكبر : مَن وحّد فقد ألحد.

فأجاب رضي الله عنه بقوله: **معنى الإلحاد هو الخروج عن الجادّة المستقيمة، فإنّ العارف إذا وحّد بتوحيد العامّة فقد ألحد، والعامّيّ إذا وحّد بتوحيد العارف فقد ألحد، يعني كفر، وفي معنى ذلك يقول صلّى الله عليه وسلّم: «أُمِرْنا معاشر الأنبياء أن نخاطب الناس على قدرعقولهم »، أوكما قال صلّى الله عليه وسلّم ممّا هذا معناه**. انتهى من إملائه علينا رضي الله عنه. ا.هـ

وقال الشيخ البعقيلي في الشرب الصافي: **فمَن يشاهد ذرة واحدة من ذرات الكون فحدّه الكثرةُ فلا يدّعي مقام غيرِهِ فمَن يغترف مِن الوحدة لا يشاهد إلا الذات من حيث هو فإذا ردّه إلى حضرة الميز البحت الصرف شاهَدَ وجود المفعول وينظر فيه فعل ربه فلا يراه وجودا و إنما يرى فعل ربه موجودا بوجود ربه أصلُهُ العدم وماهيتُهُ وقِوامُهُ العدمُ ا.هـ**

فقير: من يرد اتّباع وليٍ ولم ينوِ فيه نيّةً صالحة ولم يكن هذا الولي متضلّعا في الفقه، فقد يلتبس عليه الأمر إذا رآه قد تصرّف تصرّفا لم يفهمه ...

البيان: لا يستطيع أبدا، فالتّصديق هو الأصل، وليس يتلبّس عليه الأمر، بل نور الله هو الّذي يُلبِس عليه الأمرَ، لأنّ الوليّ هو إنسان ضعيف اعترف بضعف واعترف بجهل واعترف بتقصير، والمحبّة عنده كمحبّة الابن لوالده، محبّةً طبْعيّةً طبيعيّةً، ومحبّة الدّين ومحبّة الرّسول هي عنده أمر في غاية الجلال وفي غاية البساطة، وبالتصاق تلك المحبّة يكون في حضرة الله ﷻ، فتلك المحبّة ملازمة له وهو لا يخرج عنها، وهو لا يحبّ الكلام إلاّ عن "قال تعالى" و"قال ﷺ"، وصلّيت الصبح كذا، ومع فرح وسرور، فالوليّ لا يخرج عن هذا، فهو إذًا لا يخرج عن حضرة الله، رجال قلوبهم معلّقة بالمساجد، صلّوا الظهر ويتفكّرون أين سنصلّي العصر، فهذه خصوصيّته، وغيره يغفل عن هذا، فهو إنسان عادي لكن وفّقه الله وجذبه إلى حضرة قدسه ﷻ، فلا ينشغل بكثرة دقائق الفقه مع جلالة قدرها

وأهميتها، بل ما يكفيه منه ولا بالشِّعر ولا بأيّ شيء، رجلاً، أو امرأةً، يحبّ الله ﷻ ورسوله ﷺ، متفان في حبّه، وأغلب أوقاته أنّه يتفكّر فيما أحبّ، فقط، فإذا كان له إذنٌ وأهليّةٌ في إبلاغ أو تبليغ شيء فلابدّ لمن أراد أن يأخذ عنه أن يجعل فيه نيّةً عظيمةً، فالنيّة هي ذلك العهد الّذي بينهما فيصل به المدد والفهم والذوق ويصل به كلّ شيء لأنّه يوصله إلى حضرة الله، وفي حضرة الله تجد العلوم كلّها، تجد ما تريد من الفقه وتجد ما تريد من الأدب، فكلّ شيء موجود، وهو الّذي يدخلك إلى الخزينة، وأنت إذا وصلتَ وصارت بينكما أخوّة تلتقط ما تريد، ويُفيض عليك دائما ويبقى هو دائما سرّ نجاحك وسرّ ربحك وأصل سعادتك، فإن تخلَّفْتَ عنه تخلَّفْتَ عن سعادتك وتخلّفَتْ عنك السعادة، لماذا؟، لأنّ الله ﷻ هو الّذي جمعك معه، فلم تجمع نفسك معه ولا هو جمعك مع نفسه، ﴿**وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ**﴾[7]، فالله ﷻ هو الّذي جمعك به، ولو أراد أن يجمعك مع شخص آخر لفعل، إذًا فذلك إذنٌ ربّانيٌ وليس إذنا خاصّا، فيبعث شيخا

[7] الشورى: الآية 29

من مكان إلى مكان فيُظهر فيه الدّين والعلم والطّريقة والسّر، ويبعث أشخاصا من مكان إلى أماكن أخرى فيجدون فيها شيخا فيأخذون عنه ويتتلمذون له ويتعلّمون منه ثمّ ينتقلون إلى أماكن أخرى ويبثّون دين الله وهكذا نور الله يسري في العباد، هكذا الله ﷻ يجعل كلّ أناس بإمام مخصوص وعلم مخصوص وسرّ مخصوص، فسبحان من له من التّصاريف ومن له الشّؤون الإلهيّة ما لا دخل لأحد فيها، ﴿**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ**﴾[8]، ولا تدري نفس أين تولد، ولا يختار أحد أباه، ولا يختار أحد أن يكون أبوه فلانا أو فلانا آخر، فكذلك الأب الرّوحي لا تختاره، بل الله ﷻ هو الّذي يختاره لك، وهو الّذي يقيّدك عند فلان ويُتمَّك عند فلان ويكمّلك على يد فلان، فقط، وأنت لا تختار شيئا، ويعلّمك على يد فلان، وهكذا دين الله، فمن كان منغمسا في حضرة الله فلا يرى كلّ هذه الأمور، ربما يتذكّرها مرّة بعد مدّة طويلة، لأنّه في حضرة الله حقيقة، وأصبح لا يرى شيئا غير الله ﷻ، ومن كان غير ذلك فهو مع الكثرة، شديد الكثرة

[8] لقمان: الآية 34

شديد التعب والحيرة وشديد اللّعب والمزاح وكثرة القيل والقال، فهو خارج عن الحضرة لا يستطيع أن يكون في الحضرة، فهو خارج الحضرة فلو كان هنا، إذ لا يستطيع أن يكون هنا وهناك. فمن أقبل على الله بكلّيته أقبل الله عليه وأقبل معه جميع خلقه ومن أقبل على الدنيا بكلّيته ...

نسأل الله أن يجعلنا من العارفين الواصلين المصدّقين العاملين ويثبّتنا معهم ويأخذ بأيدينا جميعا إلى حضرته ﷻ، فمن أحبّ شيئا أكثر من ذكره، وليس الخبر كالمعاينة، وكما قد قيل: من لم يذق ليس كمن ذاق، فسيعقب ذلك الذّوقَ علمٌ، وهو العلم بالله الّذي يرمز إليه ويشير إليه ويتكلّم فيه ويحقّقه العارفون بالله تعالى، فأصله علم لدُنِّيٌّ ذوقيّ حاليّ يكون فيه العارف في حضرة ربّه فيذوق، وذلك الذّوق يعقِبُه علمٌ، فالذّوق ربّما كان قصير المدّة قصير المدى والعلم الّذي يعقبه يكون عظيما طويل المدى، لأنّ الذّوق في بعض الأوقات يكون كلمعة، كبرق يَبْرُقُ في لحظة فقط يعقبه علم عظيم في القلب يستطيع العارف بالإذن والسّند وسرّ السّند أن يتحدث عنه ويعبّر عنه

ويخرجه من حضرة هذا الغيب المغيَّب عَن غيره الّذي هو في القلب وفي السّر إلى حضرة الظّهور، ولا يظهر إلاّ عند طُلاّبه الذين يطلبونه ويسألون عنه أربابه بالتصديق والأدب، ولو أخرجه من سرّه إلى من لا يطلبه فإنّه لا يظهر إليهم، لكنّه يظهَر لطلاّبه وللأولياء الّذين يحبّون هذا العلم فقط، فيبرز من القلب ويدخل في قلوبهم، وإلاّ لَمَا ظَهَر، وكما قال سيدي الحاج الأحسن رضي الله عنه في كتابه ترياق لمن فسد قلبه ومزاجه: **فما تلقاه صلى الله عليه وسلم بلا واسطة إنما يسمى سرا لا يتوقف على رواية بل يتلقاه الأسرار من الأسرار وأهل الأسرار من أهل الأسرار وليست في مقابلة القرآن حتى يقال أنها دونه أو مساوية له أو فائقة فالأفضلية هي الفائقة** اهـ يعني إنّما الأسرار تُهدى وتلقى مِن الأسرار إلى الأسرار، ومن السّر إلى السّر، فينقدح السّر كالفرن أو كالقِدْر، ينقدح كالنّار إذا انقدحت ثمّ اشتعلت ثمّ صارت لهيبا، ينقدح السّر بهذه العلوم، مددا بعد مدد، حتّى يرسخ الإنسان فيه ويتحقّقَه وتعقبه علوم أخرى وأحوال أخرى، وتظهر على صاحبها وتأزّه أزّا وتجرّه جرّا إلى حضرة التّقوى

والاستقامة، تجرّه إلى التّقوى فتجرّده من نفسه وأهوائها، فتتقوى عليه المجاذيب الشّيطانيّة لأنّ الشيطان يحسده، لكنّ كلمة الله ﷻ هي العليا، فيأخذ بيد عبده فيسلّكه ويرشده ويحفظه ويجعله في حصن حصين حتّى يتمكّن من هذا الأمر وحتّى يتحقّق له كمالُه، وكمالُه لا يكون إلاّ بكمال التّقوى مع العلم، فيصبح وليّا قطبا عارفا بربّه إذا ما اكتمل له العلم الرّبّاني مع تقوى الله ﷻ، فيصبح كاملا ويصبح صالحا لأَنْ يُكَمِّل غيره، وأمّا قبل ذلك فلا، والمقصود فيه هو تقوى الله، وقد قال صلى الله عليه وسلم ((**ألا إنّ لكلّ شيء معدنا ومعدن التّقوى قلوب العارفين**))[9]، ألا إنّ لكلّ شيء معدنا والمعدن هو أصل الشّيء وجوهره وأكثر من هذا، والمعدن هو الشّيء الّذي يعدن فيه الإنسان أي الّذي يقيم فيه ويستوطن، يعني مركز الشّيء ومركز استيطانه ومركز محطّه، ومعدن التّقوى ومحطّ التقوى ومركز التّقوى هو قلوب العارفين أو كما قال ﷺ، وقلب العارف هو مركز التّقوى، وثمرة المعرفة بالله كلّها إنّما هي التّقوى، وإن كانت

[9] الطبراني في الكبير عن ابن عمر ﷺ والبيهقي في الشعب عن عمر ﷺ.

التّقوى من بين مراتب الدين الثلاثة ومواقفه التسعة، من توبة واستقامة وتقوى وطمأنينة إلى آخره، والإيمان بحد ذاته فيه إخلاص وطمأنينة إلى آخره، لكن في الأصل فإنّ العلم كلّه في الآخر يسمّى تقوى الله، فلا يبحث العارف إلاّ عن تقوى الله لشدّة معرفته بربّه لكن بأذواق أخرى عالية جدّا، ولذا شيخنا وسندنا الأفخر العظيم الشّأن ﷺ وأرضاه سيدي محمّد القماري عندما فُتح له ليلة القدر طلب تقريبا أربعة مطالب وكان أوّل ما طلبه أن طلب التّقوى، تقوى الله، لأنّ الرّجل لا يكمُلُ بنفسه، فلا تستطيع أن تكمُل بنفسك، ولن تصبح من أهل الله المقرّبين الصّالحين المصلحين الرّاشدين الكاملين المكمِّلين لغيرهم إلاّ إذا كمّلك الله، بأن زكّاك المربّون، وزكّاك أهل الإذن، أي بعثوا سرّهم فيك بمحبّتك، لكنّ الله هو الّذي يكمّلك، ولا يستطيع أحد أن يكمُل بنفسه أبدا، فالله هو الّذي يكمّلك وأشياخك يدعون لك بخير أبدا ويتشفّعون لك عند ربّك، والله هو الّذي يحكم، فإن أراد كمّلك، ولا تصبح كاملا إلاّ بتكميل الله لك، والإنسان لا يكمُلُ بنفسه إنّما يكمُلُ بالله، فيصبح قادرا على تكميل غيره بالله

كذلك، وهذا هو التّصديق وهو بحر عظيم واسع جدّا لا يقف فيه الكلام ولا ينتهي. والسلام.